دكتور يحيى هاشم حسن فرغل

الإسلام
والاتجاهات العلمية المعاصرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

يقوم الإلحاد العلمى المعاصر على ادعاء أن قوانين العلم التجريبى تغنى عن الإيمان بوجود الله وتدل على الطبيعة كموجود مكتف بذاته وهذا ملخصه أوجست كونت فى قوله :

(إن الاعتقاد فى ذوات عاقلة أو إرادات عليا ، لم يكن إلا تصورا نخفى وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية .. أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدينة الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظواهر الطبيعية لابد لها من أن تعود إلى سبب طبيعى وأنه من المستطاع تعليلها تعليلا علميًّا مبناه العلم الطبيعى .. فلم يبق فراغ يسده الاعتقاد بوجود الله ، ولم يبق من سبب يدفعنا إلى الايمان به)[1] .

ونحن نوضح هنا زيف هذا الادعاء ..

وكما أن مذاهب الإلحاد المعاصر ترتدى مسوح العلم .. فهى من ناحية أخرى تتفق غالبًا فى نظرتها إلى المادة باعتبار أنها أصل الوجود

وهروب بعض هذه المذاهب من التسمى باسم المادية منشؤه كما يقول الأستاذ جون سومرفيل[2] .

(إن مجرد تسمية إحدى الفلسفات لنفسها « بالمادية » يعتبر عادة فى نطاق حدودنا الثقافية أمرًا يدعونا إلى النفور منها ، وقفل الأبواب دونها ، وأن كلمة « مادية » تستخدم فى العادة فى سياق الاتهام لا من أجل التصنيف فقط) ، ثم يقول : (لهذا فهم يميلون إلى إطلاق اسم « التجريبية » و« الطبيعية » و« الإنسانية » و« الواقعية » ، وما شابه ذلك على فلسفات كان من الأدق أن تسمى « مادية ») .

---

(١) ملتى السبيل ص ٧٠ وإذن فلا مجال لإسماعيل مظهر وأمثاله أن يتظاهروا بأن أوجست كونت يقصد بالتفكير اللاهوتى ما يتصل منه بمستوى الجن والأرواح فحسب ، بل هو يقصد وهم يعلمون أنه يقصد الاعتقاد بوجود الله وكل ماتيصل به من عقائد .

(٢) أنظر « فلسفة القرن العشرين » ترجمة عثمان نويه مجموعة الألف كتاب ص ٢٥٨

والماركسية لم تختص باسم الفلسفة المادية المعاصرة إلا لأن (المفكرين السوفيت يحذون حذو ماركس وانجلز فى مقت أى تحايل لتفادى استخدام كلمة « مادية » فاطلقوا عليها بجرأة كلمة « المادة ») .

ومن هنا أيضًا يمكننا أن نقول : إن بحثنا هذا يرد على أسس الاتجاهات المادية فى المذاهب المختلفة ولاينصرف إلى بعض هذه الفلسفات دون بعض ، وإنما يشملها جميعًا طالما أن تناولنا هو للثالوث المشترك بينها :

وهو الاستناد إلى العلم أولاً .

وإنكار الدين ثانيا .

والإيمان بالمادة ثالثا .

* * *

هذا هو الثالوث غير المقدس للإلحاد المعاصر. وغاية ماتسعى إليه هو أن نفضح الصراع الدفين الدائر بين أركان هذا الثالوث .

ذلك أن العلم الحديث أصبح لايقر المادية المتخلفة « مادية هولباخ » المغلقة ..

فإذا تصالح العلم مع المادية على صعيد المفهوم الغيبى للمادة الذى تقدمه لنا الفيزيقا الحديثة ، كان لا مفر من إلغاء الركن الثانى من هذا الثالث : « إنكار الدين » ، فإذا تصالحت المادة التى تقدمها الفيزيقا الحديثة مع الدين كان لابد من إلغاء الركن الأول من هذا الثالوث « العلم » كمبدأ يرى أن المعرفة لايمكن أن تأتى من غير بابه .

وإذا كان ذلك يبين لنا حركة الإلحاد المعاصر، واضطرابه فإنه يمكننا القول :

بأن أهم القواعد التي يقوم عليها ثلاث :

القاعدة الأولى : الزعم بأن « قوانين الطبيعة » من ناحية و « التطور » من ناحية أخرى يمكن الغنية بهما عن افتراض « وجود الله » وعلمه وإرادته .

القاعدة الثانية : إنكار كل الغيبيات التى لايمكن إخضاعها للتجربة .

القاعدة الثالثة : ادعاء كفاية المنهج العلمى التجريبى والغنية به عن المناهج الأخرى ، تلك التى تستخدمها الفلسفة الميتافيزيقية ، أو الدين .

وكتابنا هذا نخصصه لإسقاط القاعدة الأولى ، فى حين نخصص للقاعدتين الأخريين كتبًا أخرى .

إن السؤال الذى نجيب عليه هنا – أو نحاول ذلك – هو : هل خلصت للعلم التجريبى مزاعمه فى التطور وقوانين الطبيعة ، تلك المزاعم التى من شأنها – فى زعم الإلحاد العلمى – أن تغنى عن القول بوجود الله ؟ هذا ما نجيب عليه فى كتابنا هذا حول مزاعم الإلحاد العلمى ، وقد قسمناه إلى ثمانية فصول ، على النحو التالى :

الفصل الأول : فى مذهب التطور الفكرى

الفصل الثانى : فى مذهب التطور الحيوى

الفصل الثالث : فى مذهب التطور الاجتماعى

الفصل الرابع : فى حتمية القوانين الطبيعية

الفصل الخامس : فى حتمية القانون هل تلغى الإرادة الإلهية ؟

الفصل السادس : فى قوانين الفيزياء الحديثة ودلالتها على احتياج العالم إلى الله .

الفصل السابع : فى إيمان بعض مشاهير العلماء التجريبيين المعاصرين

الفصل الثامن : فى المنهج البنائى للدين (الضرورة العملية) ، حيث بينا أن الإنسان ملجأ إلى الإيمان بالله بحكم الضرورة العملية ، وبينا أن هذه الضرورة العملية هى المدخل الحقيقى إلى الإيمان بالله ، وهى المدخل الحقيقى إلى العلم ، وهى الأساس الذى تلتقى عنده الاتجاهات الفكرية البشرية كلها .

وبينا أن هذا الأساس يلجئ الإنسان إلى موقف : التسليم لله .

* * *

وأخيرا فإن علينا أن نوضح أن منهجنا فى إجراء حوار مع الإلحاد القائم على العلم التجريبى ، إنما اقتدينا فيه بعلم الكلام القديم الذى كانت تحتوى مقدماته على تفهم لمسائل العلم الطبيعى السائدة آنذاك ..

ونحن اليوم فى حاجة إلى أن يقتحم علماء الكلام هذا المجال ، وهم على قدر كبير من الشجاعة ، مهما يتحملوا فى ذلك من تضحية ومهما يكن مايتعرضون له من قسوة النقد الذى لابد أنهم ملاقوه .. وذلك لأن هذا الاقتحام يتوقف عليه مصير علم الكلام ، والعلم التجريبى ، إذا أردنا لكل منهما أن يكون مؤثرًا فعالا فى توجيه الإنسان إلى المنهج الصحيح .

لقد آن الأوان الذى لابد فيه من أن يتعرف كل منهما على مالدى الآخر ..

ولقد كنا فيما كتبناه بهدف مقاومة الإلحاد المعاصر أوفياء لما اقترحناه سابقًا من إطار لما ينبغى

أن يكون عليه علم الكلام المعاصر [١]

وإنى لأرجو القارئ أن يكون صبورًا على تتبع فقرات الكتاب ، وألا يأخذه الضجر من ألا يأتيه الجواب على أسئلته الثائرة .. قبل أن يفرغ من خاتمته وبالله التوفيق ..

دكتور يحيى هاشم حسن فرغل

رئيس قسم العقيدة والفلسفة

بجامعة الأزهر

---

(١) انظر كتابينا عوامل وأهداف علم الكلام فى الإسلام والأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية .

الفصل الأوّل

مذهب التطور الفكرى
(قانون الأحوال الثلاث)

يقدم الإلحاد المعاصر المنهج العلمى التجريبى على أنه المنهج الوحيد الصالح للفكر البشرى المعاصر ويحاول أن يلبسه ثوبًا من الفضائل العلمية والعقلية ، مدعيًا أنه أى هذا المنهج منبعها الأصيل .

وترجع جذور هذه الادعاءات – فى الغالب – إلى الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت (١٧٩٨–١٨٧٥) .

يرى أوجست كونت أن الاضطراب العقلى الذى تعانيه الإنسانية مرجعه إلى أن الناس يعتمدون على ثلاث فلسفات متعارضة هى :

الفلسفة اللاهوتية ، والفلسفة الميتافزيقية ، والفلسفة العلمية أو الوضعية .

وأنه قديمًا سيطرت الفلسفة اللاهوتية بمضمونها الأسطورى الخرافى ، ثم أفسحت مجالا للفلسفة الميتافزيقية – وهى وثيقة الصلة بالخرافة ، فى حين أن الفلسفة الوضعية لم تتخذ طريقها إلى العقول إلا بعد تقدم العلوم الطبيعية المادية ابتداءً من القرن السابع عشر ، ومع ذلك فإن هذه الفلسفة الأخيرة لم تستطع القضاء نهائيًا على الرواسب اللاهوتية والميتافيزيقية مما أدى إلى ظاهرة الفوضى العقلية ، وما يترتب عليها من صراع وأخطاء أخلاقية واجتماعية .

ويعتقد أوجست كونت أن النصر سيكون فى آخر الأمر حليف التفكير الوضعى . والفلسفة الوضعية عنده تعنى :

أن كلا من اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية ، قد استنفدت موضوعاتها وافتقدت مايبرر وجودها إذ كانت قائمة عندما كانت بديلا للعلم أو مرادفة له ، ولكن العلم قد انفصل عنها

موضوعًا ومنهجًا وأصاب من النجاح مالم يقدر شيء منه للميتافيزيقية أو اللاهوت .

ومن هنا يتقرر فى الوضعية أن كل شيء وراء المعرفة الوضعية التجريبية ، ليس من المشروع الاشتغال به ، لأن مجال التفكير العقلى الصحيح إنما هو الحقائق وقوانينها والظواهر والعلاقات الثابتة التى تربط بعضها بالبعض الآخر .

ويرى كونت أن انتصار الفكر الوضعى لن يكون إلا إذا أمكن تطبيق المنهج العلمى على الظواهر الإنسانية الاجتماعية ، أى يوضع علم الاجتماع ، على غرار العلوم الطبيعية .

وعنده أن الفكر يتغير ، وتغيره يخضع لقوانين مطردة تشبه القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية فى العالمين العضوى وغير العضوى .

ووجود هذه القوانين – هكذا كان يعتقد – لايفسح مكانًا للتفسيرات اللاهوتية أو الميتافيزيقية .

وإن علم الاجتماع – على هذا النحو – سوف يشهد مصرع التفكيرين اللاهوتى والميتافيزيقى بعد أن تم القضاء عليهما فى بقية فروع المعرفة وبقى أن يتم طردهما من مجال الدراسات الاجتماعية .

ويرى أوجست كونت أن تاريخ إنشاء علم الاجتماع الذى تتوقف عليه بقية المذهب الوضعى يرجع إلى اليوم الذى كشف فيه – أى كونت – عن القانون المسمى بقانون الأحوال الثلاث : ويعبر عن هذا القانون بالصيغة الآتية :

(بناء على طبيعة العقل الإنسانى لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور فى تطوره بثلاث حالات نظرية متتابعة : الحالة اللاهوتية أو الخرافية ، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيرًا الحالة العلمية أو الوضعية) .

ويرى أنه متى ثبت هذا القانون فإن علم الطبيعة الاجتماعية لايظل مجرد فكرة فلسفية ، بل يصبح علمًا وضعيًّا ..

ومن هنا كان هذا القانون السند الأساسى للمذهب الوضعى بأسره وقد تكهن بهذا القانون كثيرون قبل كونت ، مثل تيرجو ، وكوندرسيه ، وبيردان . بل حددت صيغته منذ القرن الثامن عشر ومع هذا ينسبه كونت إلى نفسه .. ويقول ليفى بريل : لعلنا نسلم له بذلك لا على أساس أنه هو الذى استخلصه من الظواهر قبل غيره ، ولكن على أساس أنه تعرف فيه على

القانون الأساسى الذى يسيطر على التطور العام للإنسانية كما أدرك أهميته الرئيسية ، فى قيام الفلسفة الوضعية التى تحل محل اللاهوت والميتافيزيقا[١]

نفذ قانون الأحوال الثلاث :

والآن فإنه يهمنا أن ندرك قيمة هذا القانون الذى استعمله كونت كمفتاح يفض به مغاليق الإنسانية ممهدًا بذلك – كخطوة أولى – لابد منها لاستنباط مبادئه الأخلاقية ولمباشرة تنظيماته الاجتماعية . ولن نضنى نحن على هذا القانون أهمية أكبر من تلك التى أضفاها عليه كونت نفسه حيث اعتبره أساسًا لعلم الاجتماع . ذلك العلم الذى يمكنه وحده أن يحدد لنا ما إذا كان من الممكن دراسة الظواهر الاجتماعية والخلقية دراسة وضعية أم لا ؟

وعلاوة على ذلك فإن أهمية هذا القانون تظهر بوضوح أكبر عند ما ندرك أنه يمثل فى نظر كونت منطق التطور التاريخى الحاسم الذى يصبح الدين والميتافيزيقيا بمقتضاه مجرد أثر من آثار القرون السالفة قضت عليها سيادة العلم « الحتمية »

ويصبح الدفاع عن تلك الآثار بغرض إحيائها عملا من الأعمال المضادة لطبائع الأشياء .

والواقع أن فكرة هذا القانون لايمكن التسليم بها من واقع الفكر المعاصر لكونت نفسه ، وذلك بإقراره هو حيث اعترف بوجود التعاصر بين هذه الحالات الثلاث فى الفكر السائد حينذاك[٢] .

وإذا كان كونت يفسر ذلك التعاصر بأنه مؤقت ولايمكن أن يستمر ، وإذا ماقبلنا هذا التفسير على علاته ، فكيف لنا إذن أن نفسر استمرار هذا التعاصر إلى الوقت الحاضر أى إلى مابعد مضى قرن ونصف على ذلك الكلام الذى قاله كونت ؟ كيف لنا أن نفسر تلك العقلية الغربية التى تتشبث بنبؤات التنجيم تشبثًا أشد من تشبث القرون الوسطى ، وذلك حيث ينتشر التنجيم الآن فى العالم الغربى بصورة لم يعهدها الشرق من حيث التعمق والتبويب والاستقصاء . انظر فى هذا مقالا للأستاذ عباس العقاد بمجلة أخبار اليوم ١٩٥٦/١/٢١ . وانظر أيضًا جريدة الجمهورية بعددها الصادر فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٧ لترى كيف يعتمد الشعب

---

(١) انظر فلسفة أوجست كونت تأليف ليفى بريل ترجمة دكتور محمود قاسم ودكتور السيد محمد بدوى طبعة ١٩٥٢ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) فلسفة أجست كونت لليفى بريل ص ٤٦ .

الألمانى على قراءة البخت والعرافين والعرافات وكيف استشرى هذا الأمر بينهم ، حتى صارت العرافات من أعلام المجتمع ، وحتى صار لكل من رجال السياسة والاقتصاد مستشارون خاصون فى قراءة الطالع .

وما هو رأى أوجست كونت مثلا فيما قرره العلم (وهو أمر لابد من التسليم به عنده لأنه كلمة العلم) من أن عمر الجنس البشرى يبلغ ملايين الأعوام ، كيف يتم لأوجست كونت توزيع الحالات الثلاث على هذه الملايين ؟ إذا كان الطور العلمى قد بدأت بشائره على عهد كونت ، فكيف يمكن له توزيع الحالتين الأوليين ؟ وإذا كان من الممكن الاعتذار عن وجود الحالة الثانية « الميتافيزيقية وتداخلها فى الحالة الثالثة : فكيف يمكن الاعتذار عن وجود الحالة الأولى التى من المفروض أن عهدها قد انقضى منذ آلاف السنين ؟[٣] .

ثم ماهو الرأى فى إنتاج أوجست كونت الفكرى الخاص به إذ كان قد بدأ به وضعيًّا ثم انتهى دينيًّا .

إنه فى عام ١٨٤٤ تعرف كونت بـ (كلوتيلد دى فو) .. وزعم أنه تعلم على يديها أهمية إخضاع العقل للقلب .

واتخذت كتاباته بعد موتها فى عام ١٨٤٦ طابعًا جديدًا .

فما كان المجتمع – وفقًا لاتجاه فكره الجديد – ليتجدد عن طريق العلوم الطبيعية والاجتماعية وبقوة العلماء الروحية فحسب ، ولكن عن طريق دين دنيوى هو « دين الإنسانية » .

وقد أنعم كونت النظر فى هذا الدين الجديد فوضع للكائن الأعظم فيه رمزًا بصورة الأنثى . ووضع فى معبده تماثيل نصفية لمن أحسنوا إلى الإنسانية ، ووضع له تقويمًا سنويًّا ، بما فيه من شهور سميت بأسماء جديدة وهكذا .

إن الحقيقة هى أن الفكر البشرى لا يستغنى عن تعدد المناهج ، هذا مايقرره رجال الدين ورجال العلم على السواء .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز ..

(إن الذى يعنينا هنا إنما هو دخول هذه النزعات جميعًا فى كيان النفس الإنسانية ، فكما

---

(٣) يرى إسماعيل مظهر فى شرحه لهذا القانون وتأييده له أن القرنين الخامس عشر والسادس عشر هما عصر الانتقال بين الميتافيزيقا والعلم ، أما عصر المرحلة الثالثة فيبدأ من القرن السابع عشر إلى الآن : أنظر ملتقى السبيل ص ١٢٦ (...)

أننا لانجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو التعليلية كذلك لانرى إمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان)[٤] .

ويقول هيزنبرج وهو من أعلام الفيزياء المعاصرة ..

« إن انتقال العلم من ميادين الخبرات السابقة الكشف إلى الميادين الجديدة لن يكون أبدًا مجرد تطبيق ماهو معروف من القوانين على هذه الميادين الجديدة ، بل على العكس من ذلك فإن للميدان الجديد حقلا من الخبرات سيقود دائمًا إلى بلورة مناهج جديدة . لن تكون قدرتها على التحليل المنطقى بأقل من قدرة المناهج القديمة ... ولو أن طبيعتها ستكون مختلفة اختلافًا جذريًا ولهذا السبب تتخذ الفيزيقا الحديثة موقفًا يختلف تمامًا عن موقف الفيزيقا الكلاسيكية بالنسبة لكل تلك الميادين التى لم تضمن بعد فى بحوثها .

دعنا على سبيل المثال نتأمل المشاكل المتعلقة بوجود الكائنات الحية ، فمن وجهة نظر الفيزيقا الحديثة علينا أن نتوقع أن تكون القوانين المختصة بهذه الكائنات منفصلة عن القوانين الفيزيقية البحتة ، تمامًا كما تنفصل مثلا نظرية الكم عن الميكانيكا الكلاسيكية)[٥] .

ادعاء حداثة المنهج العلمى التجريبى :

وهل من الصحيح أن التفكير العلمى طور محدث من أطوار التفكير البشرى بدأت بشائره فى عصر النهضة الأوربية أو بعده بقليل كما تدعى الفلسفة الوضعية ؟

يرى هربرت سبنسر (أن العلم ليس بدعة مصطنعة وكأنه شىء خارق للطبيعة كما يتخيل أولئك الذين يفخرون بالمقابلة بينه وبين المعرفة العامة .

فالعلم هو التجربة المشتركة واليومية التى تصبح مع تطورها الطبيعى أكثر دقة)[٦] .

ويقول ت .هـ. هاكسلى العالم الإنجليزى الشهير (عندما نسمع الناس يتحدثون عن المستشار العظيم – بيكون – يتبادر إلى الذهن أنه هو الذى اخترع العلم) .

ثم يقول : (إن هذه فكرة سخيفة وخاطئة وهو قول غير صحيح دون شك ، وإنى لأرى

---

(٤) الدين ط ١٩٥٢ ص ٧٨ .

(٥) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ١٩ –٢٠ .

(٦) العلم والدين لإميل بوترو ص ٧٤ .

أن من بين الأشياء الكثيرة غير الممكنة فى العالم ليس هناك أحقر من الاستحالة العلمية الكاذبة التى يتحدث بها عن فلسفة بيكون)[٧] .

ثم يقرر هاكسلى عمومية المنهج التجريبى ، وأنه ليس خاصًّا بطور معين من أطوار النضج العقلى : فيقول :

(ليس البحث العلمى كما يظن بعض الناس نوعًا من الفنون السوداء الحديثة .

وطريقة البحث العلمى ليست سوى التعبير عن الأسلوب الضرورى الذى يعمل به العقل البشرى .

وليست هناك اختلافات أخرى بين العمليات العقلية لرجل العلم والشخص العادى ، ولكنها نفس الاختلافات التى تظهر بين الطريقة التى يعمل بها الخباز أو القصاب عند مايزن بضاعته فى ميزان عادى والكيماوى عندما يقوم بعملية تحليل دقيقة باستخدام ميزانه الحساس وصنجاته الصناعية الدقيقة ، ولا يختلف عمل الميزان العادى عن عمل الميزان الحساس من حيث مبدأ التركيب وطريقة العمل ، ولكن أحدهما مركب على محور أكثر دقة من الآخر) [٨]

ويقول : هاكسلى أيضا : (والطريقة التى تثبت بها القوانين هى نفس الطريقة التى نتبعها فى حياتنا اليومية .

وسأمثل لذلك بمثال مألوف للطريقة التى نستعملها جميعا فى إثبات أى الظواهر هو السبب فى الآخر .

سأفترض أن أحدكم عندما دخل غرفة الاستقبال فى منزله فى الصباح وجد إناء الشاى والملاعق التى تركها فى المساء قد اختفت والنافذة مفتوحة ، ولاحظ بصمات يد قذرة على إطار النافذة ، وطابع حذاء على الرمال خارج البيت .. تجذب كل هذه الظواهر الانتباه فورًا ، وقبل أن تمضى ثانيتان يقول : « لقد فتح شخص الشباك ودخل الغرفة ثم سرق إناء الشاى والملاعق واختفى » .. وربما يضيف إلى ذلك : « إننى متأكد من حدوث ذلك » .

وهذا المعنى قد يدل على أنه يقول مايعلم ، ولكنها فى الحقيقة انطباعات للملاحظات

---

(٧) ت . هـ هاكسلى ، واحد من أعظم العلماء فى القرن الثامن عشر وأعظم الكتاب العلميين ، انظر كتاب « العلم أسراره وخفاياه » تحرير الدكتور هارلو شابلى وآخرين ، ترجمة الدكتور جمال الفندى والدكتور محمد صابر سليم الجزء الأول ط ١٩٧١ ص ١٢ وما بعدها .

(٨) المصدر السابق ص ١٢ – ١٨ .

والفروض. ياترى يعلم صاحب البيت كل ذلك ؟ إن هذا لايعدو مجرد فرضية صيغت بسرعة ، وقد تمت صياغتها على أساس من سلسلة من الاستدلالات والاستقراءات .

ماهى هذه الاستدلالات والاستقراءات ؟

لقد لاحظ فى المقام الأول أن الشباك مفتوح ، وأن النوافذ لاتفتح تلقائيًّا ، وأن إناء الشاى والملاعق لاتخرج من الشباك من تلقاء نفسها ، أو البصمات لم تحدثها إلا يد آدمية ، وأنه لاتوجد حيوانات ترتدى أحذية إلا الإنسان ، وأن بعض الناس لصوص ..

وهنا يمكن تفسير هذه الظواهر بفرضية واحدة هى : اللص . وهو استنتاج فرضى لا يوجد أى دليل قاطع على صحته ، ولكنه يصبح محتملا إلى درجة كبيرة .

وهنا أيضًا يمكن لشخص آخر أن يتدخل قائلا : « ياصديقى إنك تتسرع فى الاستنتاجات ، كيف عرفت أن الشخص الذى ترك الآثار هو الذى سرق الملاعق ؟ ربما يكون قردًا هو الذى أخذها ، ويكون الشخص قد دخل بعد ذلك لمجرد الاستطلاع » ، ويمكن أن يناقش صاحب هذه الفكرة بأن يقال له : حسن .. ولكن فرضيتك على كل حال أقل احتمالا من فرضيتى .

وبينما تدور المناقشة يصل صديق ثالث ، وربما يقول « ياعزيزى : إنك حقًّا تتسرع كثيرًا فى الحكم وتبنى فرضيات على غير أساس ، وإنك تعترف أن كل ذلك حدث عندما كنت مستغرقًا فى النوم ، وحينئذ يكون من المستحيل عليك أن تعرف شيئًا عما كان يدور حولك .. لربما كان هناك أمر خارق للطبيعة قد حدث فى بيتك وأنت نائم .

والآن لا يمكنك أن ترد على استفسارات أصدقائك ولكنك تشعر بالاقتناع داخليًّا بصحة افتراضاتك وتقول لأصدقائك : « إننى أسترشد بالاحتمالات الطبيعية فى هذه الحالة ، وأرجو أن تسمحوا لى بالخروج لكى أبلغ الشرطة » .

يقول ت . هـ هاكسلى :

(إن كل العمليات التى ذكرتها فى هذا المثال تتم فى عقل أى رجل عاقل ، وتؤدى به إلى الوصول إلى استنتاج عملى .

وإن هذه الطريقة هى نفسها سلسلة التعليلات التى يتبعها رجل العلم عند ما يحاول اكتشاف أسباب وقوانين الظواهر الطبيعية . إن هذه العملية هى التى اتبعها نيوتن ولابلاس فى محاولاتهم لاكتشاف وتحديد أسباب تحركات الأجسام السماوية ، والفرق الوحيد بين طريقة

هؤلاء العلماء والطريقة التى أمكن التوصل بها إلى اللص هو أن طبيعة البحث فى حالة العلماء أكثر تعقيدًا) .

ويقول الدكتور جيمس . ب . كونانت مقررًا أن التفكير التجريبى يبدأ مع الطفل الوليد ، والرجل البدائى .

(إن الأجيال من العلماء الذين سلفوا بعد أن أخرجوا من نتائج تجاربهم ما أخرجوا وبعد أن بنوا عليها مابنوا .. إنما درجوا فى كل هذا على الأسلوب الذى يدرج فيه الطفل الوليد ليتعرف فى حياته الجديدة على الناس والأشياء . حتى التجريب العلمى نفسه بصرف النظر عما تلاه من تنظيم وتفسير ، يمكننا أن نربط بينه وبين مايحاوله الرجل البدائى من التعرف إلى دنياه)[٩] .

ادعاء أفضلية المنهج العلمى التجريبى :

ثم يقرر كوبانت عمومية الاتجاه التجريبى ، وعدم اقتصاره على أطوار النضج كما يدعى صاحب قانون الأحوال الثلاث :

يقول : (إن الإنسان فى تجريبه من كل نوع يبتدئ بأبسط صور هذا التجريب ذلك هو التجريب فى حياته اليومية ، ثم يتدرج بعد ذلك درجات متصلات إلى أن يصل آخر الأمر إلى التجريب العلمى الدقيق فالتجريبان أصلها واحد)[١٠]

أما الأستاذ إسماعيل مظهر فهو يبدو منبهرًا بهذا القانون إذ يصيح فى سذاجة قائلا : (إن قانون الدرجات الثلاث الذى كشف عنه الفيلسوف أوجست كونت لأكبر استكشاف وصل إليه العقل البشرى فى الطبيعة الإنسانية)[١١] .

وهو إذ يؤيده بمثل هذه العبارات التى لايجرؤ كونت أو تلاميذه على التفوه بها .. يلتفت إلينا – نحن ضحاياه – ليحثنا على « الخروج من حيز الغيب والتخيل » ، و « أن نجتاز عصر

---

(٩) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم للدكتور جيمس . ب كونانت رئيس جامعة هارفاد ترجمة الدكتور أحمد زكى مدير جامعة القاهرة سابقا نشر دار المعارف ١٩٦٣ ص ٥٦ . والدكتور كونانت من أعلام العلم الحديث ، تولى مناصب علمية رفيعة

(١٠) مواقف حاسمة ص ٨٤ .

(١١) تاريخ الفكر العربى ص ١٠٩

النظر الغيبى الذى خلفنا فيه آباؤنا ..،.. » ، ولنا عليه ملاحظات :

١ – إنه يتوهم – بل يوهمنا – أن الحالة اللاهوتية التى جعلها كونت الحالة البدائية للتفكير الإنسانى تعنى مجرد تفسير الظواهر بإرجاعها إلى (أرواح الآباء والأجداد والشياطين ، ولاتزال مستغرقة فى بحبوحة الاعتقاد بالسحر .. إلخ) . ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان .

لكنه كان يعلم أن أوجست كونت يقصد بالتفكير اللاهوتى كل اعتقاد بوجود إرادة فوق الطبيعة هى التى تسيرها سواء كانت هذه الإرادة موزعة بين أرواح أو آلهة كثيرين ، أو راجعة إلى إله واحد . وليس أدل على ذلك من تصوير إسماعيل مظهر نفسه لما يعنيه كونت بالحالة اللاهوتية بقوله : (أما العقل فى الدرجة اللاهوتية فإنه يبحث فى طبيعة الأشياء وحقائقها وفى الأسباب الأولى والعلل الكاملة ، يبحث فى الأصل والماهية والقصد من كل الأشياء التى تقع تحت الحس)[١٢] .

وكان إسماعيل مظهر يعلم أن كونت يرى أن الحالة الثالثة تلغى كل اعتقاد بالله وباللاهوت – أى تلغى الحالة الثانية والأولى – بناءً على أن العلم بالظاهرات الطبيعية وبأسبابها التى تعللها تعليلا علميًّا ، أى مبناه العلم الطبيعى .. هذا العلم الذى يتحقق فى الحالة الثالثة .. (لايبقى فراغًا يسده الاعتقاد بوجود الله ، ولا يبقى سببًا يسوقنا إلى الإيمان به)[١٣]

إن إسماعيل مظهر كان يعلم كل ذلك عن أوجست كونت ، ويزيد ذلك توضيحًا تلك المناقشة التى أوردها إسماعيل مظهر ، على لسان بيتى كروزيار ضد كونت فى قول هذا الأخير بأن معرفة الأسباب تغنى عن القول بالإرادة الإلهية .

إنه لأمر واضح أشد الوضوح أن الحالة اللاهوتية – الحالة الأولى – عند كونت ليست قاصرة على أساطير الأرواح والشياطين ، بل تشمل معها القول بإله واحد فعال لما يريد .

وإذن فأى تأييد لقانون الأحوال الثلاث يتضمن بالتأكيد تأييد القول بأن الإيمان بالله ، وبالدين من خصائص العقلية الأسطورية المقضى عليها بالانقراض وفقًا لحتمية التطور على النحو الذى جاء به هذا القانون .

وأى تظاهر من المؤيدين لهذا القانون بأنهم يفهمون من الحالة اللاهوتية (التفكير الغيبى المحصور فى نطاق أرواح الآباء والأجداد والشيطان) ، لا يمكن تصديقه من ناحية ، ولا

---

(١٢) ملتقى السبيل ص ١٢٥ – ١٢٨ .

(١٣) ملتقى السبيل ص ٧٠ ، وانظر ص١ من مقدمة هذا الكتاب .

يمكن تفسيره من ناحية أخرى إلا بأنه تغطية مؤقتة لعملية نشر هذا المذهب فى بيئة شديدة التدين .

إن مهاجمة الغيبيات لايمكن أن تكون قاصرة على نطاق ضيق منها ، لأن مفهوم هذه الغيبات مفهوم شامل عند كونت وعند غير كونت .

ولقد أفصح الأستاذ إسماعيل مظهر عن كراهية عميقة عارمة للإيمان بالغيبيات فيما أورده بكتابه حيث يقول :

(عسى أن يكون قريبًا أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضح الأسلوب اليقينى – يظن أن العلم يقينى – سوف تقودنا إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادمًا يثير فى جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه) (١٤)

وماهو الأسلوب الغيبى مادمنا نتكلم بصدد قانون الأحوال الثلاث ؟ هو الدين .

وإن العجب ليتملك المرء أشد تملك إذ نرى المناقشة تجرى بينه وبين الشيخ أمين الخولى حول هذا الموضوع ، فلا نرى دفاعًا عن صحة التفكير اللاهوتى أو الإلهى أو الدينى ، ولانرى نقدًا أو تشكيكا فى قانون كونت القاضى على الأديان فى زعم صاحبه ، ولكننا نجد محض دفاع عن العرب ضد اتهامهم بأنهم لانصيب لهم فى الحالة الثالثة حالة التفكير الوضعى أو العلمى . يقول الشيخ أمين الخولى متحدثًا عن إسماعيل مظهر بضمير الغيبة (هلا تعطف ، فوضعهم – أى العرب – فى أول مرقاة الدرجة الثالثة ؟) أما الدفاع عن الدين ، أو حتى عن الإنسان فى ارتباطه بالله أو بالدين فهذا مالا ذكر له فى مقال الشيخ(١٥) .

وإنما يجرى الحديث كما لو أن قانون كونت مسلمة من المسلمات التى لايجوز رفع الحدق فى حضرتها .

وعلى نفس المنوال سارت مناقشة الأستاذ مصطفى الشهابى(١٦) .

أما الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز والأستاذ عباس العقاد فقد كانا فاهمين حقًّا لحقيقة الموقف ، وسنعقب بمقالتهما على هذا البحث .

---

(١٤) تاريخ الفكر العربى ص ١١٥ .

(١٥) انظر مجلة المقتطف إبريل ١٩٢٦ وتاريخ الفكر العربى ص ١١٧ .

(١٦) انظر مجلة المقتطف نوفمبر ١٩٢٦ .

٢ — وإذا كان إسماعيل مظهر فخورا بقانون الأحوال الثلاث مبشرًا به ، فإنه ليتناقض مع نفسه ، فى مواضع أخرى ، قرر فيها ضرورة البحث عن العلة الأولى وعن الإرادة العليا وقرر أيضا أن هذا البحث لايكون عن طريق « العلم » لأن العلم مهمته (الوصف) لا التفسير ، وقرر فيها كذلك أن لابد من العلم ومن الدين معًا ، وأن لكل مجاله الخاص (١٧)

٣ — ثم إننا نقول :

إن إبطال الاعتقاد بالسحر والأرواح والآلهة المتعددة كتفسير للظواهر الطبيعية أمر ضرورى نوافق عليه إسماعيل مظهر كل الموافقة ، لكن لسنا بحاجة فى ذلك إلى قانون الأحوال الثلاث الذى وضعه كونت ليهدم به الأديان جميعًا ويعلم إسماعيل مظهر ذلك ..

٤ — يسمى إسماعيل مظهر التفكير العلمي بالتفكير اليقينى ، والتفكير اللاهوتى والميتافيزيقى بالتفكير الاحتمالى ، وما أدعى ذلك إلى السخرية .

فالعلم التجريبى ، والمنهج العلمى التجريبى والعلماء التجريبون كل أولئك يقررون فى بساطة ووضوح أنهم يعملون وفقا لمبدأ الاحتمال لا لمبدأ اليقين وكيف غاب ذلك عن الاستاذ إسماعيل مظهر ؟

بل انظر إليه إذ يناقض نفسه ويقول فى موضع آخر من كتابه وهو بصدد التفرقة بين الدين والعلم (للدين يترك اليقين والاعتقاد والتسليم ، وللعلم يترك الانتقاد والاستقراء والمقارنة وما إليها .) (١٨)

٥ — وفى ظل إعجاب اسماعيل مظهر بقانون الأحوال الثلاث أخذ يهاجم السيد جمال الدين الأفغانى على ماكتبه فى « الرد على الدهريين » ، وماتضمنه هذا الكتيب من نقد قاس لداروين ، متهما إياه بأنه (وريث العرب فى علومهم وفلسفتهم وقف من الرقى الفكرى حيث وقفوا وقف عند النظر الميتافيزيقى الغيبى ، فكان فيمادبج من أسطر الرد على الدهريين مثالا لما اختلط من مباحث آبائه . . .) ولست أدرى من آباء إسماعيل مظهر إن لم يكونوا هم العرب ؟؟

كما أنى لست أدرى لماذا تهرب إسماعيل مظهر من مهاجمة الأفغانى على كونه لم يتعد المرحلة

(١٧) انظر إليه إذ يقول عن هذه الأحوال الثلاث مايفيد التخلص النهائى من الحالة الأولى : (إن كل حالة تختلف عن الأخرى تمام الاختلاف ، بل إننا لانبالغ إذا قلنا إنها تتضاد تمام التضاد) تاريخ الفكر العربى ص ١١٠

(١٨) ملتقى السبيل ص ٢٩٦ .

(١٩) ملتقى السبيل ص ١٢٨ .